

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بمّث بعنوان:

معالم مقاصد القرآن الكريم زمن الصحابة والتابعين.

إعداد: د رضوان بن إبراهيم لخشين.

أستاذ القراءات وعلومها بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة الجزائر

البريد الإلكتروني: redlek21@gmail.com

بمّث مقدم للمشاركة المؤتمر الدولي الموسوم بـ:

(التقصيد القرآني الجديد والمقاربات الحديثة في الدراسات القرآنية المعاصرة).

ضمن المحور الأول: المحور التاريخي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة الجزائر.

كلية أصول الدين قسم الكتاب والسنة.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن مُجدا عبده ورسوله المصطفى الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن القرآن الكريم، كلام الرب العظيم، العليم الحكيم، كلام من عظمت قدرته ووسع كل شيء علمه، فجلت حكمته، أنزله على عبده ورسوله ليكون مبشرا ونذيرا للثقلين، ورحمة للعالمين، كتاب الهداية المطلقة، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو الفصل ليس بالهزل، وهو الحق في ألفاظه، ومعانيه، وغاياته ومرامييه.

وقد كان القرآن الكريم محل اهتمام المسلمين من الأولين والآخرين، قرأوه، ورتلوه، وتفهموه وتدبروه، فامتثلوا ما فيه علما وعملا، واستخرجوا علومه نصا ومفهوما، فكان من جليل علومه، وعظيمها، علم مقاصد القرآن الكريم.

ولا يخفى على المهتمين ما لعلم المقاصد عموما من أهمية ومنزلة بين العلوم، ورغم كل ما يقال في أهمية علم مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة وضرورتها للمسلم والعالم والمفتي والمفسر وغيرهم، ورغم كل ما يذكر من أصالة هذا العلم ووضوح حججه وبراهينه، إلا أن النفوس تبقى متشوفة متطلعة إلى تلك الدراية والمعرفة التي تكشف لها عن أصالة هذه العلوم لدى جيل التنزيل، جيل القرآن الكريم قراءة ودراية، جيل الصحابة والتابعين، إذ يستحيل في العقول أن يغفل جيل لغة القرآن وجيل تنزيله وجيل أئمة تأويله، أن يغفلوا عن أدق علومه، وأجلها ألا وهو علم مقاصد القرآن الكريم. كيف لا وهو العلم الذي إنما السبيل إليه عمق التدبر وطول التأمل، ومعرفة أصول الدين وقواعده، ونقاء السريرة وسلامة الفطرة، والقوم من الصحابة والتابعين قد حازوا من ذلك كل سبق. فهل عرف السلف من الصحابة والتابعين مقاصد القرآن الكريم؟، وما هي المظاهر التي تجلى فيها علمهم بها؟.

ولم أزل أطلع البحوث والمقالات المتعلقة بهذا الموضوع فوجدتها لم تستطع تسليط الضوء على مهمات من محطات هذا العلم في تلك الحقبة الزمنية، ولا الكشف عن حاله فيها، حتى بات الشك يراود الأذهان في مدى تحقق أولئك القوم من مقاصد القرآن، فجمعت لذلك في هذا البحث جملة من المسائل، والمعارف لتكون كاشفة عن هذا المطلوب، ومبرزة مظاهر تجليات هذا العلم في تراث أولئك القوم، ومعالم صورته عندهم، فكان عنوانه: "معالم مقاصد القرآن الكريم زمن الصحابة والتابعين".

الدراسات السابقة:

أولى المعاصرون كثيرا من الاهتمام بعلم مقاصد القرآن الكريم، وكُتبت فيه الكثير من الدراسات والبحوث والمقالات، ما جعل البعض يحكم جازما أن هذا العلم من علوم العصر التي ولدت فيه، ولم تعرف قبله، وهذا والله عين الجنانية على العلم وأهله، بل وعلى خاصة أهله، وليت من ادعى هذا الادعاء قدم بعض ما يسند دعواه، بل أغلب من تكلم في مقاصد القرآن الكريم يغفل عن التأصيل لها، وبيان تاريخها، وأحسنهم حالا، وأفضلهم مقالا، من ينسبها إلى علم مقاصد الشريعة، وينطلق في الكلام عليها منه، وهذا عين الإجحاف والعقوق كل العقوق، أن ينسب الأب لابنه، لذلك أقول جازما أي لم أقف من خلال ما بحثت وطالعت من مقالات ودراسات على من بحث مسألة التاريخ لعلم مقاصد القرآن الكريم زمن التنزيل وزمن الصحابة والتابعين بشكل يشفي العليل، ويروي الغليل.

هذا، وقد أشرفت على جملة من الدراسات المتعلقة بموضوع مقاصد القرآن الكريم فكان من كبير الصعوبات والإشكالات لدى الباحثين ندرة بل وانعدام من تكلم في هذا العلم - مقاصد القرآن - تأصيلاً وتأريخاً، وهو ما رسخ الفكرة وأكد العزم، وأزّ القلم أن يسطر هذه الكلمات، وينظهما في المباحث الآتية، بيانا لبعض ذلك المطلوب بحسب الطاقة والجهد.

أهداف البحث:

* هذا البحث كشف وتأريخ، فهو كشف عن مظاهر وتجليات علم مقاصد القرآن الكريم في أزمن العلم والخير والفضل، زمن التنزيل زمن الصحابة وكذا زمن من جاء بعدهم ممن اتبعهم بإحسان.

* يهدف هذا البحث لبيان علم الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان بمقاصد القرآن الكريم وما فيها من علوم ومضامين، وهذا فيه إنصاف القوم والإشادة بعلومهم خلافاً لمن ادعى أنهم لم يكونوا على دراية بها، وأنها علوم أنتجها العصر الحديث.

* إن هذا البحث بما تضمنه من معارف تكشف عن حال علم مقاصد القرآن الكريم عند الصحابة والتابعين، يسهم في بيان مقدار أخذ أولئك القوم بتلك المقاصد، وما مدى تعاملهم معها، ليرسم للفقهاء والمجتهدين معالم ضوابط التعامل مع هذا العلم، ليسلم المتكلم فيه من الشطط إلى غلو أو جفاء.

* كما يهدف هذا البحث لتصويب جملة من المعارف التي لما لم توضع في محلها، ولم تفهم في سياقها نتج عن هذا وذاك خلل كبير في فهمها وفهم ما علق به، وأقحمت معه، فلزم التوضيح والتصحيح.

* ومن أهداف البحث بيان أن تنويع صور تقليب الأمور وعرضها، وبيان تغاير جهات النظر في الحقائق ذاتها، كفيل باستخراج المزيد من علومها التي قد يغفل عنها، فمقاصد القرآن الكريم منه وفي مضمونه وحقيقته، وفي علومه وفنونه، لكنها تحتاج من يستخرجها، بعد تقليب النظر فيها، والاستنباط منها.

وقد جاء هذا البحث في مجمله على أربعة مباحث ومقدمة وخاتمة، بيانها على النحو الآتي:
مقدمة:

المبحث الأول: تعريفات بين يدي البحث.

المطلب الأول: تعريف مقاصد القرآن لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: معنى قولنا زمن الصحابة والتابعين.

المبحث الثاني: هل للقرآن الكريم مقاصد؟

المبحث الثالث: المقاصد القرآنية في الأحاديث النبوية.

المبحث الرابع: المقاصد القرآنية في كلام الصحابة والتابعين.

الخاتمة:

كشاف المصادر والمراجع:

وهذا أوان الشروع في المقصود والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول: تعريفات بين يدي البحث.

يتعين علينا بين يدي الولوج إلى مضامين البحث التوطئة له بجملة من التعريفات المساعدة، والتي دل عليها عنوان البحث، فنعرض باختصار فيما يلي لتعريف مقاصد القرآن الكريم، وماذا نقصد بزمّن الصحابة والتابعين، فأقول:

المطلب الأول: تعريف مقاصد القرآن لغة واصطلاحاً.

ولتعريف هذا المركب الإضافي نعرف أولاً بمكربيه ثم به حال تركيبه:
فالمقاصد لغة: جمع مَقْصَد، كما تقول في مَقْعَد مَقَاعِد⁽¹⁾.

وكلمة (مقصد) من حيث وزنها هي مصدر ميمي من الفعل الثلاثي (قَصَدَ = فَعَلَ)، وصيغة مصدره الميمي تكون على زنة (مَفْعَل = مَقْصَد)⁽²⁾، .

تقول العرب: قَصَدَهُ وَقَصَدَ لَهُ وَقَصَدَ إِلَيْهِ، وَيَقْصِدُهُ وَيَقْصِدُ لَهُ وَيَقْصِدُ إِلَيْهِ⁽³⁾. وقَصَدْتَهُ قَصْدًا وَمَقْصَدًا⁽⁴⁾.

وأما من حيث أصل اشتقاقه فهو من الأصل الثلاثي: (ق ص د)، ومعناه في اللغة في الأصل دال على "الاعتزام والتوجه والنهوض والنهوض نحو الشيء"، كما ذكر ذلك ابن جني رحمه الله (ت 392هـ)، ومثله ما ذكر ابن فارس رحمه الله (ت 395هـ): في المعنى الأول لهذا الأصل وأنه من "إتيان الشيء وأمه". وذكر له معاني أخرى:

القصد بمعنى الكسر. والقصد بمعنى الاكتناز والامتلاء.

وذكر غيره من أهل اللغة معاني أخرى منها: الاستقامة والقرب. والتوسط والاعتدال.

وهنا يمكننا أن نلاحظ ما يلي:

1. أن تلك المعاني المذكورة جميعها يمكن أن ترد مع حسن النظر والتأويل إلى المعنى الأول الذي ذكره ابن جني، وذكره ابن فارس كأصل أول، وهو الاعتزام على الشيء والنهوض والتوجه والأمر نحوه. ما خلا ما كان بمعنى الكسر فإنه لم يظهر لي بعد وجه رده وإرجاعه إلى المعنى الأول.

2. أن الذي يخدم ما نحن بصدد الكلام فيه في علم مقاصد القرآن الكريم هو ذلك المعنى الأول الذي أشرنا إليه هنا في الملاحظة الأولى، فالمقاصد في اللغة هي ما يتوجه إليه وينهض إليه، ويُؤمُّ من كل شيء، وهي بمعنى آخر الغايات التي يتوجه إليه وتبتغي وتسللك السبل للوصول إليها.

وسياًتي مزيد توضيح لذلك حال بيان التعريف الاصطلاحي لعلم مقاصد القرآن الكريم.

3. أن كلمة المقاصد ذات معنى لغوي معلوم كما تقدم، وليس لها حال انفرادها أي معنى اصطلاحى، أي أن لفظة (المقاصد) هكذا مفردة دون أي إضافة ليس لها إلا معناها اللغوي السابق ذكره، ولا تكتسب أي معنى اصطلاحى إلا بعد الإضافة، كأن يقال: (مقاصد القرآن، ومقاصد الشريعة، ومقاصد الأحكام، ونحو ذلك).

(1) - الزبيدي، تاج العروس، (66/1).

(2) - الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، (61).

(3) - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، (310).

(4) - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (95/5).

وأما القرآن الكريم:

فتعريف القرآن الكريم لغة وشرعا من المباحث التي تناولتها الدراسات القرآنية بشكل واسع من حيث استقصاء أصله اللغوي وتعريفه الشرعية، أو الاصطلاحية، ولما كان ذلك من المسائل المعلومة نكتفي هاهنا بالإشارة إلى تلك البحوث والدراسات التي تناولته بالبيان والتعريف⁽¹⁾، ولن نخلي المقام من جمل مختصرة مذكرة بمهمات المسألة فنقول:

القرآن لغة - على الصحيح - مصدر من الفعل قَرَأَ يَقْرَأُ قِرَاءَةً وَقُرْآنًا. والقراءة التي هي التلفظ بالكلام وتلاوته والنطق به، راجعة في أصلها إلى معنى الجمع الذي يدل عليه أيضا أصل (قرأ) لأن القارئ يجمع النطق بالحروف لتكون الكلمة، ويجمع النطق بالكلمات لتكون الجمل، فاجتمع في ما ذكر هنا قول من قال إن القرآن معناه من الجمع، وقول من قال معناه من القراءة والتلفظ والتلاوة.

وأما القرآن الكريم في الشرع فهو اسم على كلام الله تعالى المنزل على رسول ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، المعجز المتعبد بتلاوته المكتوب في المصاحف.

هذا تعريف القرآن الكريم على وجه الاختصار والاقتصار على ما دلت عليه الأدلة من القرآن والسنة، وإلا فالكلام في شرح ذلك وتوضيح أدلته، يطول به المقام.

وبعد تناولنا للتعريف الإفرادي لمركبي (مقاصد القرآن الكريم) نتناوله الآن باعتباره مركبا إضافيا دالا على مسمى علمي، هو ما يعرف ب: علم مقاصد القرآن الكريم.

التعريف الاصطلاحي لمقاصد القرآن الكريم:

علم مقاصد القرآن الكريم يمكننا القول إنه من العلوم التي عرفها السلف رحمهم الله تعالى وتحققوا بها دراية وعلمًا وعملا، وورث عنهم علومهم تلك من جاء بعدهم من العلماء في كل طبقة وجيل، وأدلة هذا كثيرة تأتي الإشارة إليها حال الكلام على تاريخ علم مقاصد القرآن الكريم.

إلا أن هذه الأصالة لهذا العلم صاحبها عدم تناولهم له بالتعريف والبيان تحت هذا الاسم = مقاصد القرآن الكريم، وإنما عرف عندهم من خلال جملة من المظاهر سيكشف عن جملة منها هذا البحث، فتلك المقاصد القرآنية تبع لها في الاسم عندهم.

وتبعا لذلك فإن الناظر والمتتبع لكلام العلماء من المفسرين وعلماء القرآن من المتقدمين والمتأخرين باحثا عن تعريف اصطلاحي ل (مقاصد القرآن الكريم) يفتقد حال تتبعه الوقوف على أي عبارة من شأنها أن تسعفه في طلبه، ما يدل على أنه لم يكن عندهم تناول للفظ (مقاصد القرآن) فضلا عن الاصطلاح فيه على معنى خاص، ذلك أن قلة تناول اللفظ وتداوله تدل على عدم الاصطلاح فيه.

ثم يستمر الحال على ما ذكر إلى غاية القرن الخامس الهجري مع إمام الحرمين أبي المعالي الجويني رحمه الله (ت 478هـ) أين بدأ ظهور هذا اللفظ "مقاصد" ضمن كتابات الجويني رحمه الله الأصولية، التي كانت نواة ما سُمي بعد ذلك بعلم مقاصد الشريعة.

(1) - انظر: محمد بن عمر بازمول، القراءات القرآنية وأثرها في التفسير والأحكام، (23 وما بعدها).

ليأتي من بعده تلميذه الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505هـ) أين بدأ عنده ظهور هذا اللفظ المركب "مقاصد القرآن"، وذلك في كتابه (جواهر القرآن)⁽¹⁾، وتزامن ذلك مع تطور استعمال لفظ "المقاصد" ضمن علم مقاصد الشريعة. يظهر للمتتبع أن الغزالي (ت 505 هـ) رحمه الله هو أول من استعمل هذا المركب الإضافي "مقاصد القرآن"، كما يظهر له جليا أنه لم يُعرّفه بتعريف خاص، ما يدل على أنه استعمل هذا المركب في معناه اللغوي فحسب. وتلاه في استعمال هذا اللفظ المركب الإضافي، وما في معناه جمع من الأئمة والعلماء في أزمنة متعاقبة مختلفة، وفي علوم مختلفة، ومن أولئك الأئمة:

الفخر الرازي رحمه الله (ت 606 هـ)، في تفسيره، والعز بن عبد السلام رحمه الله (ت 660 هـ)، في بعض مصنفاته، والبيضاوي (ت 685 هـ)، وابن جزى الكلبي (ت 741 هـ)، والطبي (ت 743 هـ) رحمهم الله جميعا في تفاسيرهم. ومنهم الطوفي رحمه الله (ت 716 هـ) في بعض كتبه، وابن القيم رحمه الله (ت 751 هـ) في كثير من مصنفاته. ومن بعدهم جمع من الأعلام أيضا كالبقاعي (ت 885 هـ)، والمهايمي رحمه الله (ت 835 هـ) في تفسيره، والآلوسي رحمه الله (ت 1270 هـ) في تفسيره أيضا، والشوكاني رحمه الله (ت 1250 هـ) في بعض مصنفاته.

ثم اشتهر بعد ذلك هذا المركب "مقاصد القرآن" لدى المتأخرين شهرة واسعة، واستعمل استعمالا كثيرا، فكان من أعيان من ذكره وتكلموا فيه: مُجّد رشيد رضا (ت 1354 هـ)، وابن باديس (ت 1359 هـ)، والمرآغي (ت 1371 هـ)، والقاسمي (ت 1332 هـ)، والظاهر ابن عاشور (ت 1393 هـ)، وعبد القادر ملا حويش (ت 1398 هـ)، وهبة الزحيلي (ت 1418 هـ)، وسعيد حوى (ت 1409 هـ)، رحمهم الله جميعا في تفاسيرهم المعروفة. وغيرهم كالزرقاني رحمه الله (ت 1367 هـ) في "مناهل العرفان". ومُجّد الغزالي (ت 1416 هـ) رحمه الله في كتابه "المحاور الخمسة".

جميع أولئك الأئمة الذين وسعني الاطلاع على بعض مصنفاتهم، والوقوف على بعض استعمالاتهم للفظ "مقاصد القرآن"، تعبيرا وذكرًا وتقسيمًا، إلا أن جميعهم يجمعهم ملحظ واحد هو المقصود في هذا المقام، وهو أنهم لم يجعلوا لهذه اللفظ المركب "مقاصد القرآن الكريم" معنى خاصا في تناولهم واستعمالهم يكون زائدا عن المعنى اللغوي، ليكون هذا المعنى الزائد هو اصطلاحهم في هذا المركب، بل لم يخرج استعمالهم له عن معناه اللغوي، أي لم يخرج عن المعنى اللغوي لكلمة (المقاصد) مضافة، ومقيدة بالقرآن الكريم.

ومما سبق، وأخذا بما سبق ذكره من معنى لغوي لكلمة المقاصد يمكننا أن نقول: إن "مقاصد القرآن" هي: تلك الغايات والأهداف والأغراض والمآلات التي يريد القرآن الكريم أن يوصل العباد إليها، سواء أكانت هذه المقاصد كلية أو جزئية، وسواء كانت ابتدائية أو مرحلية أو نهائية.

وفي الآونة الأخيرة، وتحديدًا عند المعاصرين من أهل العلم والباحثين، تناولت دراساتهم هذا العلم بشيء من التأليف النظري والتأصيلي، فانبتت عن تلك المؤلفات جملة من العبارات والكلمات التي ذكرها كتعاريف اصطلاحية لهذا العلم "علم مقاصد القرآن". وهنا نذكر بعضها مع التنبيه على جملة من الملاحظات المتعلقة بها.

(1)- الغزالي، جواهر القرآن، (23).

فمن أولى تلك التعريفات تعريف علال الفاسي حيث قال: "والقصد العام من نزول القرآن هو هداية الخلق وإصلاح البشرية، وعمارة الأرض"⁽¹⁾.

ومنها تعريف عبد الكريم حامدي الذي قال فيه: "هي الغايات التي أنزل القرآن لأجلها تحقيقا لمصالح العباد"⁽²⁾.

وقريب منه تعريف بعضهم قائلًا هي: "الأسرار والحكم والغايات التي نزل القرآن الكريم لأجل تحقيقها جلبا للمصالح ودفعًا للمفاسد وهي واضحة في جميع القرآن أو معظمه"⁽³⁾.

ومنه تعريف بعض الباحثين القائل فيه هي: "المقاصد العامة للقرآن هي المعاني الغائية العامة التي اتجهت إرادة الله الشرعية إلى تحقيقها من إنزال القرآن على المكلفين في الدارين"⁽⁴⁾.

ومن التعريفات أيضا قول أحد الباحثين هي: "الموضوعات الأصلية والرئيسة التي يدور حولها القرآن وما يتفرع عنها من فروع مع مراعاة النظر في الحكم والغايات والأهداف التي أرادها الشارع من ذكر هذه الأمور"⁽⁵⁾.

وهذه بعض التعريفات التي استطعت الاطلاع عليها، وأكد أن البحوث العلمية المتنوعة الموارد والمشارب والمتخلفة التخصصات قد أودعت غيرها مما لم ندره، غير أني أرى فيما ذكر كفاية لبيان نماذج من تلك التعريفات، وأكد أن غيرها لن يتعد عنها، ولنا بعد ذلك بعض الوقفات مع هذه التعريفات، فأقول:

- واضح في أغلب تلك التعريفات عدم الانضباط بضوابط التعريفات، والحدود من الجمع والمنع، والاختصار والخلو من الشرح، وعدم الدور.

- اشتركت التعريفات الثلاثة الأولى في كونها استعملت بعض العبارات المعروفة في تعريف مقاصد الشريعة، بل واضح أنها تعريفات متأثرة متأثرا واضحا بتعريف علم مقاصد الشريعة، وليس خاف على الباحثين أن أصحاب هذه التعريفات من المهتمين بالفقه وأصوله ومقاصد الشريعة، فلا شك أن تتأثر تعريفاتهم لمقاصد القرآن بذلك، خاصة مع سبق التأليف التنظيري في علم مقاصد الشريعة، تعريفا وتقسима، بما جعل الكلام في مقاصد القرآن الكريم يؤخذ قياسا من مقاصد الشريعة.

وهذا ما يجعلنا نرى بوضوح ذلكم التقاطع والتداخل بين العلمين (مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة) حقيقة وتعريفا، ذلك التقاطع جعل بعضهم يحكم على هذه التعريفات بأنها تعكس وتصور عدم انضباط الحدود بين علمي مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة، كما تصور أيضا تأثير علم مقاصد الشريعة في علم مقاصد القرآن لأسبقية الأول على الثاني تأليفا وتنظيرا. - أشارت بعض تلك التعريفات إلى جانب وضوح مقاصد القرآن الكريم، ودلالة القرآن الكريم عليها، وهذا ما يشير إلى أن من المقاصد القرآنية ما هو واضح منصوص عليه، ومنها ما سبيله النظر والتأمل والاستنباط.

- اقتصر بعض التعريفات على المقاصد العامة، ولم تشر إلى المقاصد الخاصة والجزئية في القرآن الكريم.

(1)- علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية، (88).

(2)- عبد الكريم حامدي، المدخل إلى مقاصد القرآن، (31).

(3)- نشوان عبده، مقال بعنوان: دور الاستقراء في إثبات مقاصد القرآن الكريم، (14).

(4)- عز الدين كشيظ، أمهات مقاصد القرآن طرق معرفتها ومراتبها، (37).

(5)- عبد الله الخطيب، مقاصد القرآن وأهميتها في تحديد الموضوع القرآني، موقع رياض العلم، (4).

- أشارت بعض التعريفات إلى اندراج موضوعات القرآن الكريم ومحاوره ضمن مقاصد القرآن الكريم، وهنا نقول: إن مما لا شك فيه مطلقاً أن المتقدمين من أهل العلم قصدوا من (مقاصد القرآن) محاوره العامة وموضوعه الإجمالية، وكلامهم في هذا في غاية الوضوح، وما من عالم تكلم في مقاصد القرآن وذكر أقسامها عنده إلا ويذكر محاور القرآن الكريم وموضوعه الكلية ك: (التوحيد والنبوت والمعاد و...) كأقسام لمقاصد القرآن الكريم. وهو ما يصور بجلاء العلاقة الواضحة بين مقاصد القرآن وموضوعه.

خلاصة:

وكخلاصة لما تقدم من تعريفات يمكننا أن نقول إن تلك التعريفات على اختلافها لم تتعد كثيراً عن المعنى اللغوي للمركب الإضافي (مقاصد القرآن) = الغايات والحكم وما يريد القرآن الكريم أن يوصل إليه العباد، مع ضرورة إضافة أقسام تلك المقاصد والإشارة إليها، ضمن التعريف ذلك أن من المقاصد ما هي مقاصد كلية عظمى كلية، ومنها مقاصد جزئية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن تلك المقاصد منها ما هو مرحلي موصل إلى ما بعده، ومنها ما هو نهائي، هو أسمى المقاصد وأعلاها إطلاقاً، فإذا كان مقصد معرفة الله تعالى أعظم المقاصد وأسناها، وهو منتهى جميع مقاصد القرآن الكريم، فإن كل ما في القرآن من مقاصد تعتبر مراحل إليه.

فمقاصد القرآن الكريم: هي حكمه وغاياته التي يوصل العباد إليها كلية كانت أم جزئية، مرحلية كانت أم نهائية.

إن هذه الأسطر بما حملته من تعريف اصطلاحي لمقاصد القرآن الكريم تعتبر متقدمة عن محلها التاريخي بالنسبة لعنوان البحث، وذلك أن التواضع في الاصطلاحات سواء في الألفاظ أو في العلوم يكون متأخراً عن وجودها وظهورها غالباً، فالعلوم في أغلب أحوالها تظهر وتوجد ويتعلمها الناس، ويأخذون بها علماً وعملاً، ثم يشتهر أمرها عندهم فيأتي أمر الاصطلاح في بعض قضاياها. فمهما قدمنا هذه التعريفات الاصطلاحية فإنما هي لرسم حدود ما سنتبع تاريخه، ونتمسك معاملة في زمن التنزيل زمن الصحابة الكرام والتابعين.

المطلب الثاني: معنى قولنا زمن الصحابة والتابعين.

قيد عنوان البحث الحقبة الزمنية محل الدراسة بـ "زمن الصحابة والتابعين"، فمن الضروري الوقوف عن هذه الجزئية لتوضيح معناها وتحديد زمنها فأقول:

الصَّحَابَةُ أصلها من الجذر الثلاثي (ص ح ب)، وهو في اللغة يدل على "يَدُلُّ عَلَى مُقَارَنَةِ شَيْءٍ وَمُقَارَبَتِهِ. مِنْ ذَلِكَ الصَّاحِبُ"⁽¹⁾، ومنه لفظ الصحابة وهو مصدر من الفعل صحب، جاء في لسان العرب: "صحب: صحبه يصحبه صحبة، بالصيم، وصحابة، بالفتح، وصاحبه: عاشره. والصَّحْبُ: جَمْعُ الصَّاحِبِ مِثْلُ زَاكِبٍ وَرَكِبٍ. والأصحاب: جماعة الصحب مثل قَرَحٍ وَأَفْرَاحٍ. وَالصَّاحِبُ: المعاشر"⁽²⁾. ثم صار المصدر (صحابة) اسماً بالغلبة على أولئك القوم الذين صحبوا الرسول ﷺ وتوفرت فيهم شروط تأتي الإشارة إليها في التعريف الاصطلاحي.

(1) - ابن فارس، معجم مقاييس، (3/335).

(2) - ابن منظور، لسان العرب، (1/519).

هذا الأخير الذي هو التعريف الاصطلاحي قد وقع فيه خلاف بين أهل العلم، والذي استقر عليه القول والاصطلاح ما ذكره الحافظ ابن حجر رحمه الله من تعريف للصحابي في "نخبة الفكر" حين قال: "وهو من لقي النبي ﷺ - مؤمناً به، ومات على الإسلام، ولو تحللت ردة في الأصح" (1).

وقد وضح مما تقدم أن لوصف الصحبة علاقة بإيمان من تحقق بها بالنبي ﷺ، أي إن الصحبة وصف وجودي من لدن ابتداء تحقق النبي ﷺ بوصف النبوة، وذلك كان ابتداء من ليلة غار حراء حين كانت بداية الوحي، ونزل قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق]، فمن حينها تحقق النبي ﷺ بوصف النبوة وتحقق كل من رآه مؤمناً به ومات على الإسلام مؤمناً بكونه صحابياً، فبداية وصف الصحبة كان من بداية نزول القرآن والوحي، وأول الصحابة على هذا هو خديجة رضي الله عنها، ثم كثر الداخلون في الإسلام فكثرت الأصحاب.

وأما (التابعون)، فهو من حيث اللغة مشتق من الأصل (ت ب ع) وهو دال: " وَهُوَ التُّلُوُّ وَالْقَمُؤُ . يُقَالُ تَبِعْتُ فُلَانًا إِذَا تَلَوْتَهُ وَاتَّبَعْتَهُ . وَاتَّبَعْتُهُ إِذَا حَقَّقْتُهُ" (2). وفي لسان العرب: "والتابع: التالي، والجَمْعُ تَبَعٌ وَتُبَاعٌ وَتَبَعَةٌ... " (3)، ويقال تابعون، وأتباع.

وأما في الاصطلاح فقد عرف ابن حجر رحمه الله التابعي، فقال: "هو من لقي الصحابي مؤمناً بالنبي ﷺ ومات على ذلك" (4).

فإذا عرفنا حد الصحابي والتابعي، فإن حدود هذا المطلب قد عُرفت بما يمكننا بعد ذلك أن نضع إطاراً زمنياً واضحاً لمحل الدراسة والبحث، فهو إذا المدة الزمنية الممتدة من بداية البعثة النبوية، إلى غاية آخر زمن التابعين، وتحديد هذا الأخير يحتاج منا إلى تدقيق نذكره فيما يلي فأقول:

قد ذكر غير واحد من أهل العلم (5) أن آخر التابعين وفاة هو خلف بن خليفة بن صاعد الأشجعي أبو أحمد الكوفي (ت 181 هـ)، غير أنه لا يسعفنا الحال بجعل هذا التاريخ حداً، ذلك أن الزمن المعتبر في قولنا: (زمن التابعين) هو زمن وجودهم بوفرة وكثرة، وأما زمن (181) الذي توفي فيه آخر تابعي فأكد أنه زمن كان التابعون فيه قلة، وهو زمن وفرة وكثرة للطبقة التي جاءت بعد التابعي، وهي طبقة تبع التابعين، لذا ينبغي علينا الرجوع في التاريخ عن سنة (181) بفترة زمنية كافية ليكون التابعون موجودون فيها بشكل لا بأس به، والتحديد الدقيق لذلك يحتاج إلى تأمل وبحث وتفتيش عسر وصعب ولا يسعفنا هذا المقام في ذلك، لذا سنلجأ إلى تحديد تقريبي فنعتبر سنة 160 هـ هي آخر الفترة التي وجد فيها التابعون بشكل كبير. وهي حينئذ الحد التقريبي للحقبة الزمنية محل الدراسة، فهي الحقبة الممتدة من لحظة البعثة إلى 160 هـ، والله أعلم.

(1) - ابن حجر، نخبة الفكر مع شرحها نزهة النظر، ت الرحيلي، (136).

(2) - ابن فارس، معجم مقاييس، (362/1).

(3) - ابن منظور، لسان العرب، (27/8).

(4) - ابن حجر، نخبة الفكر مع شرحها نزهة النظر، ت الرحيلي، (139).

(5) - انظر: ابن رسلان، "محاسن الاصطلاح"، (519). السخاوي، "فتح المغيب"، (148، 146/4).

المبحث الثاني: هل للقرآن الكريم مقاصد؟

الجواب على هذا السؤال مهم جدا إذ البحث عن تاريخ الشيء فرع عن تقرير وجوده، كما أن بحثنا عن مظاهر مقاصد القرآن الكريم في زمن الصحابة، والتابعين فرع عن وجود الشيء المبحوث عنه عندهم، ولذا يتوجب علينا تقرير وجود هذه المقاصد في القرآن الكريم ثم الكلام في تاريخها، ومظاهر تجليها.

وليس يخاف على الجميع أن القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه العليم الحكيم، كلام الإله العظيم الذي وسع علمه ما كان، وما سيكون وما لم يكن لو وجد وكان كيف كان سيكون، كلام الرب الكريم الذي يعلم ما خلق، وهو اللطيف الخبير، فكلام من هذا بعض وصفه لا شك ولا ريب أنه الكلام الذي كملت حكمته، وتنوعت مقاصده، فمنها الواضح بقليل النظر، ومنها وما يدرك بغاية التدبر، وبين هذا وذاك منازل يتفاوت فيها أولى النهى والعقول. وقد دل على تضمن القرآن الكريم لعظيم المقاصد وجليلها، ودقيقها وجليلها، دل على ذلك أدلة منها:

أولاً: أسماء الله تعالى.

فالله سبحانه هو العظيم الذي أنزل القرآن الكريم، تكلم به حقاً، وأوحاه إلى نبيه صدقاً، فأسماءه وما دلت عليه صفاته دليل الحكمة والغايات الكريمة في كل أقواله وأفعاله، فالله سبحانه هو:

الحكيم، فهو سبحانه الحكيم في كل أقواله وأفعاله وتقديراته فلا خلل ولا عيب، بل هي الكمال المطلق، وغاية الإتقان، فالحكيم هو واسع العلم، والإطلاع على مبادئ الأمور، وعواقبها، الذي لكامل علمه وإحاطته وكماله وجلاله لم يكن في أقواله وأفعاله كلها إلا ما يمتنع عن العبث واللغو والسدى. فالحكيم هو يضع الشيء في موضعه اللائق به⁽¹⁾.

وهو سبحانه **العليم الخبير** الذي أحاط علمه بالظواهر، والبواطن، والإسرار، والإعلان، والواجبات، والمستحيلات، والممكنات. وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي، والحاضر، والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء⁽²⁾.

وهو سبحانه **السلام القدوس السبوح** الذي تنزه عن كل نقص في الأقوال والأفعال، وما ذلك إلا لكماله وعظمته. فهو منزه سبحانه عن اللغو والعبث واللغو، والسدى في أقواله وأحكامه وأخباره، ولو لم تكن ذات مقاصد، وغايات حميدة لما حازت كل ذلك الكمال والجلال والنزاهة والطهر.

وهو سبحانه **الهادي** الذي يهدي خلقه إلى ما به قوام حياتهم، ويهدي المكلفين إلى ما فيه سعادتهم، فيرشدهم ويصبرهم بما يصلح حالهم ومآلهم. ولا هداية إلا من يعرف بدايات الأمور وغاياتها، ومطالعها ومقاصدها. فليس الهادي في الصحراء المقفرة إلا من عرف طرقها، وشعابها وأوديتها، وسفوحها وجبالها، وسلك بك من بين ذلك سبيلاً رشداً موصلاً إلى النجاة والخلاص. وذلك هو مقصود كل مسافر.

وهو سبحانه **رب العالمين** الذي عمهم بنعمه، وأمدهم وأصلحهم بما هياً لهم مما يقيم حياتهم وآخرتهم، ومن كمال ربوبيته تمام تدبيره للأمور في بداياتها وغاياتها.

يقول ابن القيم رحمه الله: "الأصل الخامس أنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا لغير معنى ومصلحة، وحكمه هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة، لأجلها فعل ما فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها

(1) مُجَدِّد سعيد اليوبي، مقاصد الشريعة، (107).

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (945).

فعل، وقد دل كلامه، وكلام رسوله على هذا، وهذا في مواضع لا تكاد تحصى، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها فنذكر بعض أنواعها... " (1). ثم عدد جملة من الأدلة على وجود الحكمة في أقوال الله سبحانه وأفعاله.

ثانيا: أسماء القرآن الكريم وأوصافه.

فقد جاء في القرآن الكريم تسمية القرآن ووصفه بأوصاف عظيمة دالة على كمال ألفاظه ومعانيه، وعظمة مقاصده ومراميه، ومنها أن القرآن الكريم:

هو الكتاب الذي ﴿أَحْكَمْتَ آيَاتُهُ﴾ [هود:1]، وهو ﴿ءَايَاتُ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:6]، وهو ﴿وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:58]، وهو ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس:1]، وهو ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس:1]، فهو ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾ [القمر:5].

وهو الهداية والهدى، وهو الصحف المطهرة المنزهة عن العبث، وهو الكتب القيمة، وهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو تنزيل رب العالمين، فهو كلام العظيم الحكيم، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:6].

يقول ابن القيم رحمه الله مبينا بعض دلائل الحكمة والمقاصد، والغايات الحميدة في أقوال الله وأفعاله، وأن منها: "التصريح بلفظ الحكمة وما تصرف منه كقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:113]،

وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:269]، والحكمة هي العلم النافع والعمل الصالح وسمي حكمة لأن العلم والعمل قد تعلقا بمتعلقهما وأوصلا إلى غايتيهما.

وكذلك لا يكون الكلام حكمة حتى يكون موصلا إلى الغايات المحمودة، والمطالب النافعة فيكون مرشدا إلى العلم النافع والعمل الصالح فتحصل الغاية المطلوبة فإذا كان المتكلم به لم يقصد مصلحة المخاطبين ولا هداهم ولا إيصالهم إلى سعادتهم ودلالتهم على أسبابها وموانعها ولا كان ذلك هو الغاية المقصودة المطلوبة ولا تكلم لأجلها ولا أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجلها ولا نصب الثواب والعقاب لأجلها لم يكن حكيما ولا كلامه حكمة فضلا عن أن تكون بالغة" (2).

فها أنت تقرأ أيها الفاضل أن أسماء الله سبحانه، وأسماء كتابه العظيم القرآن الكريم كلها دليل انطوائه على الحكم العظيمة والغايات السامقة، والمقاصد الحسنة.

ثالثا: الأساليب العربية الدالة على الغاية والمقصد.

القرآن الكريم هو كلام الله العربي المبين، بلسان قوم سيد المرسلين، ليبين لهم، ويهديهم، وينذرهم ويبشرهم، جاء على سنة كلامهم، وأساليب خطابهم، والتي منها أسلوب التعليل، "وقد جاء التعليل في الكتاب العزيز بالباء تارة، وباللام تارة، وبأن تارة، وبمجموعها تارة، وبكي تارة، ومن أجل تارة، وترتيب الجزاء على الشرط تارة، وبالفاء المؤذنة بالسببية تارة، وترتيب الحكم على الوصف المقتض له تارة، وبلما تارة، وبأن المشددة تارة، وبلعل تارة، وبالفعول له تارة" (3).

(1) محمد بن أبي بكر ابن القيم، "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر"، تحقيق محمد أبو فراس، (بيروت: دار الفكر، 1398 - 1978)، 190.

(2) ابن القيم، "شفاء العليل"، (190).

(3) محمد بن أبي بكر ابن القيم، "إعلام الموقعين عن رب العالمين"، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، (ط1، المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، 1423 هـ)، 2: 333-334.

وبعد أن عدد ابن القيم رحمه الله هذه الأوجه من التعليل في القرآن الكريم سرد مجموعة كبيرة من الآيات التي وردت بهذه الأساليب تدليلاً على وجود المرادات والغايات والمقاصد في الكلام الله سبحانه هو أرفع الكلام عريية وأرقاه بلاغة. ومن أمثلة تلك الأساليب في القرآن الكريم:

(كي ولا مها): قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص].

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ لِنَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة].

(لعل وما تبعها): وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة].

وهذان الأسلوبان، وهذان الحرفان أكثر الحروف التي ورد التعبير بهما في القرآن الكريم عن مقاصد القرآن عموماً، وأما ما وردت به مقاصد القرآن الجزئية المتعلقة بأمر من أمور الشريعة أو عمل من أعمالها أو أمر من أوامرها أو نهي من نواهيها فهي آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا فِرْقَانَهُ لِيَتَفَرَّقَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّجْوِي مِنْ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [المجادلة: 10].

ومن الأساليب أيضاً⁽¹⁾:

الشرط والجزاء كقوله: ﴿ وَإِنْ تَضَيَّرُوا وَتَتَفَوَّأُوا لَا يُضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: 120].

والفداء كقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَاهُمْ ﴾ [الشعراء: 139] ﴿ فَصَوَّأَ رَسُولٌ رَيْهَمَ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴾ [الحاقة: 10]، ﴿ فَصَوَّ فِرْعَوْنَ

الرُّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيكًا ﴾ [المزمل: 16].

وترتيب الحكم على الوصف كقوله: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة: 16]، وقوله: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: 11].

وإنَّ المشددة كقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: 77]، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴾ [الأنبياء: 74].

والمفعول له كقوله: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ [الليل: 19 - 21]،

أي: لم يفعل ذلك جزاءً نعمة أحد من الناس، إنما فعله ابتغاء وجه ربه الأعلى.

ومن أجل كقوله: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [المائدة: 32].

وغيرها من الآيات كثيرة جداً في الآداب والأحكام ومسائل الإيمان والعقيدة، وردت في القرآن الكريم بأساليب التعليل فأفادت أن ما في القرآن الكريم من أحكام وآيات هي ذات علل وغايات وحكم، فالأحكام التي وردت في القرآن الكريم ذات علل وغايات، والقرآن الذي وردت فيه تلك الآيات ذو حكم وغايات ومقاصد⁽²⁾.

(1) تراجع في كلام ابن القيم رحمه الله المحال عليه في التهميش السابق (9).

(2) استطرده محمد سعيد البيوي في بيان أدلة اشتغال الشريعة على مقاصد، وحكم وغايات من المنقول في كتابه " مقاصد الشريعة الإسلامية "، (106) وما بعدها، وكلامه جدير بالمطالعة والقراءة.

ولهذا الذي تقدّم تقريره وذكره كان قول السلف رحمهم الله، وأكثر أهل المذاهب الأربعة، وأكثر أهل التفسير والحديث ومن المتقدمين أن أفعال الله سبحانه وأقواله وأحكامه معللة، تتضمن الحكم والغايات، والمقاصد العظيمة الحميدة، ونسب هذا القول ابن القيم رحمه الله إلى أهل التحقيق من الأصوليين والفقهاء والمتكلمين. وهو قول المعتزلة أيضا⁽¹⁾.

وبعد أن قررنا في هذا المبحث تضمن القرآن الكريم للمقاصد والغايات العظيمة، الكلية والجزئية، فإنني حينها سألج بالقارئ الكريم في المباحث الآتية وقد وضحت لديه المقاصد القرآنية من حيث تعريفها، ووجودها في القرآن الحكيم، ليتعرف بعد ذلك على أهم تجلياتها، ومظاهر بروزها في الزمن الأول زمن التنزيل وما بعده.

غير أنني وقبل ذلك أجد نفسي مجبرا على مزيد التذكير بأن تلك الأساليب اللغوية الصريحة في التعليل والتقصيد، والتي لا يتخلف عن فهم دلالتها المقاصدية أي عربي، تلك الأساليب والصيغ بصراحتها تدل على أن الصحب الكرام ممن نزل فيهم القرآن الكريم قد فهموا منها تلك الدلائل الصريحة، وعرفوا مقاصدها التي دلت عليها، ولما كانت من القرآن الكريم، اجتنبت ذكرها كمظهر خاص من مظاهر تجلي المقاصد القرآنية لوضوحها. إلا أنها حينئذ تمثل أولى المراحل التاريخية لمقاصد القرآن الكريم، فقد وجدت المقاصد القرآنية وظهرت بظهور القرآن الكريم، ونزوله على النبي الأمين، سواء في ذلك تلك الآيات الصريحة، أم آيات أخرى وهي التي سيتأملها المجتهدون ليروا أنها دلت على مقاصد القرآن الكريم.

المبحث الثالث: المقاصد القرآنية في الأحاديث النبوية.

والقصد من هذا المبحث بيان أنه قد جاء في الأحاديث النبوية ما يدل على علمه ﷺ بمقاصد القرآن الكريم، ودرايته ﷺ بها، وإرادته إلى بيانها، وتعليمه من جاء بعده من صحابته رضوان الله عليهم إياها، وهو ما يؤرخ لنا علم الصحابة رضوان الله عليهم أيضا بتلك المقاصد، ويعطينا شيئا من صورتها لديهم. ويمكن أن أحصر ما يمكن عرضه ضمن هذا المبحث في صنفين اثنين هما: مقاصد القرآن في أسماء السور. ومقاصد القرآن في أقوال النبي ﷺ وأفعاله. وتفصيل ذلك فيما يلي:

أولا: مقاصد القرآن في أسماء السور.

أسماء سور القرآن الكريم هي: الأسماء التي تتميز بها كل سورة عن الأخرى، وهذه الأسماء اختلف العلماء في مصدر تسميتها، هل هو التوقيف، أم في بعضها شيء من اجتهاد؟.

والقائلون بالتوقيف لهم من المرويات شيئا كثيرا يدل على ذكر النبي ﷺ للسور بأسمائها.

كما أن عددا كبيرا من السور لكل واحدة منها أكثر من اسم، ما يجعل القول بالتوقيف في جميعها غير وجيه، وأن للاجتهاد مكان واضح في باب تسمية السور.

والقصد من ذكر طرف هذه المسألة هنا هو التنبيه إلى مفهوم التوقيف المراد فيها، فالتوقيف يطلق ويراد به ما يكون وحيا من الله سبحانه إلى نبيه، وكذا ما يكون أمرا منه هو ﷺ، إلا أنه في مسألتنا هذه أرى والله أعلم أن المراد بالتوقيف فيها هو ما أثر عن النبي ﷺ من تسمية وما جاء عنه فقط، فتلك التسميات للسور هي منه هو ﷺ، ولا يعرف أنه قد ورد شيء من

(1) مُجَّد سعيد البوي، " مقاصد الشريعة الإسلامية "، (80). وقد أحال على جملة من المصادر والمراجع التي بحثت هذه المسألة فلترجع.

لا شك أن سنة النبي ﷺ قد حوت الإشارة إلى مقاصد القرآن الكريم، سواء أكانت مقاصد عامة أو جزئية، وسواء أكان التنبيه على تلك المقاصد من النبي ﷺ جاء بطريق التصريح أو بطريق الإشارة والتي تستنبط استنباطاً، وفي هذا المبحث سأعرض لنماذج من أحاديث النبي ﷺ أوضحت وجلت بعض مقاصد القرآن الكريم، ورأيت أن أقسمها كالاتي:

1. مقاصد القرآن الكريم في أقوال النبي ﷺ.

جاء في أقواله ﷺ جملة من الأحاديث دلت على مقاصد القرآن الكريم، وفيما يلي عرض لبعض ما وقفت عليه من ذلك فأقول:

✽ جاء عنه ﷺ أن جعل سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، ففي الصحيحين وغيرهما أنه ﷺ لما سمع رجلاً يقرأ سورة الإخلاص قال: "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن"⁽¹⁾. ودلت أحاديث أخرى كثيرة على أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن الكريم، وهذا الوصف أثار اجتهادات العلماء لبيان وجه المعادلة، ومن أشهر الأقوال في معناه عند المتأخرين والمعاصرين أن القرآن الكريم من حيث مضمونه على ثلاثة معان: الأسماء والصفات لله تعالى، وثانيها الأحكام التكليفية، وثالثها: الوعد والوعيد⁽²⁾. ولما كانت سورة الإخلاص خالصة في بيان صفات الله تعالى ونعته، وتضمنت أحد تلك المعاني الثلاث، كانت تعدل ثلث القرآن الكريم من هذا الوجه.

✽ وجاء عن النبي ﷺ أيضاً ذكر لبعض الآيات وذكر لفضلها، وفي ذلك ما يفهم منه عظمة مضمونها، وسمو مقصدها، ومن ذلك قوله ﷺ لأبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟"، وكرره عليه مرة فقال أبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قُلْتُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]. قَالَ: فَضْرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: (وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْدَرِ)⁽³⁾. فما كانت هذه الآية أعظم ما في كتاب الله تعالى إلا لعظمة مضمونها، وجلال معناها، وقداسة متعلقها. وفي ذلك إشارة واضحة جلال مقصدها.

✽ حديث الأحرف السبعة من الأحاديث المشهورة عند أهل العلم عموماً، وعلماء القرآن والقراءات خصوصاً، ومن أخص الروايات في هذا الباب رواية ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وفيها أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ: "كَانَ الْكِتَابُ الْأَوَّلُ يَنْزِلُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَعَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ مِنْ سَبْعَةِ أَبْوَابٍ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ: زَاجِرٌ، وَآمِرٌ، وَحَلَالٌ، وَحَرَامٌ، وَمَحْكَمٌ، وَمُتَشَابِهٌ، وَأَمْثَالٌ، فَأَحْلَوْا حَلَالَهُ، وَحَرَمُوا حَرَامَهُ، وَافْعَلُوا مَا أَمَرْتُمْ بِهِ، وَانْتَهَوْا عَمَّا نَهَيْتُمْ عَنْهُ، وَاعْتَبَرُوا بِأَمْثَالِهِ، وَاعْمَلُوا بِمَحْكَمِهِ، وَآمَنُوا بِمُتَشَابِهِهِ، وَقُولُوا: "آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا"⁽⁴⁾.

(1) - أخرجه البخاري (5013)، ومسلم (811). واختلف أهل العلم في معنى كونها تعدل ثلث القرآن الكريم، فقال بعض أهل العلم إنما هي تعدله في الأجر، وهو قول الجمهور وأكثر أهل العلم، وقال آخرون إنما تعدله لما كان القرآن الكريم ذا أقسام من حيث معناه، وكانت تلك الأقسام ثلاثة، ودلت هذه السورة على ثلث تلك المعاني. انظر: ...

(2) وهو ما رواه البيهقي عن أبي العباس ابن سريج (ت 306 هـ) في "الأسماء والصفات" فقال: "أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْوَلِيدِ الْقَعْقَبِيَّ، يَقُولُ: سَأَلْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ بْنَ سُرَيْجٍ قُلْتُ: مَا مَعْنَى قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: "إِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ أَنْثَلًا: ثُلُثٌ مِنْهَا أَحْكَامٌ وَثُلُثٌ مِنْهَا وَعْدٌ وَوَعِيدٌ، وَثُلُثٌ مِنْهَا الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ وَقَدْ جُمِعَ فِي قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، أَحَدُ الْأَنْثَلِ وَهُوَ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ، فَقِيلَ: إِنَّهَا ثُلُثُ الْقُرْآنِ وَمِنْهَا" (ح 110/1، 63).

(3) - أخرجه مسلم (810).

(4) - أخرجه ابن حبان في صحيحه (745)، والحاكم في المستدرک (2031، 3144).

وهذا الحديث قد ضعف أهل العلم رفعه، والصواب أنه موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه، وقد صحت روايات أخرى عن جمع من الصحابة تضمنت كون القرآن الكريم ذا أبواب سبعة، ثم إن:

اقتران الأبواب السبعة بالأحرف السبعة، وموافقتهما في العدد لا يعلم إلا من جهة النبي صلى الله عليه وسلم توقيفا.

وكذا ما صح في بعض روايات حديث الأحرف السبعة عن أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعا بلفظ: "... فأمرني أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب من الجنة، كلها شافٍ كافٍ" ⁽¹⁾.

فكون تلك الأبواب من الجنة يجعلها من عالم الغيب الذي لا يعلم إلا بتوقيف منه صلى الله عليه وسلم، فكذلك كونها سبعة أبواب، هو من تعليمه صلى الله عليه وسلم، فحتى لو كانت رواية ابن مسعود رضي الله عنه المعينة لأفرادها ضعيفة فأقل أحوالها أنها اجتهاد صحابي في ما دل الدليل الصحيح على أصله (الأبواب السبعة). وتلك الاجتهادات من الصحابة والتابعين هي ما سنذكره ونشير إليه في المبحث الآتي. والذي قصدنا إليه هنا هو التنبيه على أن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم دل على تلك الأبواب إجمالا. تلك الأبواب السبعة هي معان القرآن الكريم ومحاوره، التي اجتهد الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم بعدهم في تعيينها. ولا يمنع هذا الاجتهاد من أن يكون ذلك مرفوع حكما.

* إن من المعلوم لدى الدارسين أن بين مقاصد القرآن الكريم، ومقاصد الشريعة ارتباطا واضحا، علاقة متينة، فمقاصد الشريعة مندرجة ضمن مقاصد القرآن الكريم الواسعة وخاصة المقاصد الكلية منهما، ولما كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم مستمد مقاصد الشريعة ودليلها، كانت تلك الأحاديث نفسها دليلا لمقاصد القرآن الكريم، في وجودها وعلم الناس بها زمن النبوة وما بعده، ومن أمثلة ذلك:

حديث: "إنما الأعمال بالنيات..." ⁽²⁾، وهو من الأحاديث المشهورة التي صارت قاعدة من قواعد الشريعة والدين، فقد دل على اعتبار الشرع لنيات المكلفين، وإعمالها في الحكم على الأعمال، وعدم إلغائها.

ومنها حديث: "لا ضرر ولا ضرار" ⁽³⁾، فهو دال على قصد الشريعة إلى رفع الضرر، وتقليله على المكلفين عموما، الفاعل والمفعول به.

ومنها حديث: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا" ⁽⁴⁾، وهو أصل مستمد من مقصد قرآني هو البشارة والندارة، والدعوة إلى التيسير ورفع المشقة، والاتلاف وترك الاختلاف.

ولو ذهبنا نتبع الأحاديث مثل هذه لجمعنا كثيرا منها مما فيه الدلالة على ما دل عليه القرآن الكريم من مقاصد كلية كانت أم جزئية، فكل الأحاديث الدالة على تحقيق التقوى، والدالة على الدعوة وهداية الناس، والدالة على تحقيق العدل والإنصاف ونفي الظلم، والدالة على الرحمة بالخلق والإحسان إليهم، كل تلك وغيرها من الدلائل التي قد جاءت السنة بها وجاء القرآن

(1) -أخرجه الطبري في تفسيره (69/69/1) قال: حدثني به أبو كريب، قال: حدثنا محمد بن فضيل، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، عن جده، عن أبي بن كعب، به . قال أحمد شاکر في تحقيقه: " هذا إسناد صحيح. "

(2) أخرجه البخاري (1)، ومسلم (1907) وغيرها.

(3) أخرجه أحمد في "المسند" (326/5)، وابن ماجه في "السنن" (2340). قال النووي رحمه الله في كتابه: "الأربعين": " له طرق يقوى بعضها ببعض ". قال ابن رجب رحمه الله في " جامع العلوم والحكم ": " وهو كما قال ". (210/2) طبعة ابن الجوزي ..

(4) أخرجه البخاري (2873)، ومسلم (4547) بهذا اللفظ، وهو عند غيرهما أيضا.

بالقصد إليها واعتبارها. يندرج تحت هذا المعنى، وهو دلالة السنة على مقاصد الشريعة التي هي جزء من مقاصد القرآن الكريم، فهي بذلك تؤرخ لصورة من صور علم الصحابة بتلك المقاصد القرآنية.

2. مقاصد القرآن الكريم في أفعال النبي ﷺ.

قد كان النبي ﷺ القدوة في كل أحواله، في أقواله وأفعاله وتقريراته، وقد تقدم ذكر إشارات إلى دلالة الأحاديث النبوية القولية على مقاصد القرآن الكريم، وفيما يلي إشارات أخرى دالة على دلالة سنته ﷺ الفعلية على مقاصد القرآن الكريم، فمن ذلك:

✽ كل أفعاله ﷺ فهي تحقيق فعلي لمعان القرآن الكريم، وتحقيق لمقاصده، فإذا علمنا أن من أهم مقاصد القرآن الكريم⁽¹⁾ الهداية به، وتحقيق البيان به، والتأمل والتدبر له، وتحقيقه لمقصد التفكير، والتقوى، والرحمة والعدل، رأيت بعد ذلك أن كل أفعاله ﷺ تحقيق لهداية القرآن فهدي الناس، وأرشدهم وعلمهم، وبين لهم وتركهم على الواضحة البيضاء، وأمر بتعلم القرآن وتأمله وتدبره، وكان قبل ذلك سيد القراء وإمام المفسرين، وكان أتقى الناس وأرحمهم للناس وأعدل الناس تحقيقاً لمقاصد القرآن الكريم، وكلنا يتذكر في هذا المقام قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن" ومن تمثل القرآن الكريم في سائر شؤون حياته كانت أفعاله ناطقة وشاهدة للقرآن بمقاصده.

✽ ومن ذلك أيضاً أنه حث على قراءة بعض السورة وتكرارها في أوقات معلومة وأحوال مخصوصة فدل على أن في ذلك الفعل قصداً، وإشارة إلى ما تضمنته تلك السور من معان ومقاصد، ومن ذلك قراءة سورة الكهف كل جمعة، وقراءته ﷺ سورة ق على المنبر في أغلب الجمععات، وفي ذلك إشارة إلى الاعتناء بما دلت عليه تلك السور من معان جامعة، ومقاصد جليلة.

✽ وآخر ما نختتم به هذا المبحث ما سبق الإشارة إليه من إقراره ﷺ لذلك الصحابي في قراءته سورة الإخلاص ووصفه لها بـ "صفة الرحمن"، وهو ما يدل على صدق نيته، وصواب فعله واجتهاده، وكمال أجره و ثوابه.

كل تلك الجوانب التي تقدم ذكرها تدل على البداية الفعلية، والتاريخ الصحيح لمقاصد القرآن الكريم، فهي التي وجدت مع وجود القرآن الكريم، وظهرت مع نزوله، فعرفها النبي ﷺ وصحبه الكرام، وكيف لا وهم السادة في كل عمل نافع، وعمل صالح، وفي المبحث الآتي نزيد الأمر توضيحاً، وتأكيذاً من خلال بيان مظاهر تجلي مقاصد القرآن الكريم عند الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

(1) هذه المقاصد دلت عليها آيات القرآن الكريم بصريح أسلوبها ومن ذلك: مقصد الهداية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ١﴾ [الإسراء]. وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ٣٨﴾ [آل عمران]. وفي مقصد البيان للقرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ٣٨﴾ [آل عمران].

ولمقصد التدبر للقرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ٥١﴾ [ص] والتدبر يستلزم الفهم والتفسير، وهما يستلزمان القراءة والتلاوة. وفي مقصد تحقيق القرآن الكريم للتفكير قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمُ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٥١﴾ [النحل]. ولمقصد التقوى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٥١﴾ [البقرة].

المبحث الرابع: المقاصد القرآنية في كلام الصحابة والتابعين.

قد تجلّت بوضوح أيضا معالم مقاصد القرآن الكريم علما ودراية في ما أثر عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين من علوم وأخبار وآثار، فقد كان القوم أصحاب القدر المعلن في علوم القرآن الكريم على اختلاف أنواعها، ولا شك أن السلف أعلم الناس بمقاصد القرآن صريحها ومستنبطها، وفيما يلي عرض لمظاهر تلك التجليات، وأرتبها على وفق ما سبق ترتيبه في المبحث السابق، فأقول:

أولا: مقاصد القرآن الكريم من خلال أسماء السور.

كثير من سور القرآن الكريم لها أكثر من اسم، بعضها توقيفي، وبعضها الآخر أو أكثرها اجتهادي، وتلك الاجتهادات كان بعضها من الصحابة والتابعين، وبعضها من غيرهم، وفي هذا المقام سأقتصر على تلك التسميات التي كانت من الصحابة والتابعين لسور القرآن الكريم، تلك التسميات التي يظهر فيها بجلاء إدراكهم وعلمهم بمقصد تلك السورة، ومضمونها ومحورها، وهو ما يمثل صورة من صور مقاصد القرآن الكريم، وفرعا من فروعه، ألا وهو علم مقاصد السور، فمن ذلك: أن سورة الفاتحة يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سماها بـ "أساس القرآن"، لأنها أوله وأساس كل شيء ما كان في أوله، وكذا لأنها اشتملت على أشرف مطالبه ومضامينه⁽¹⁾.

وكذا سورة البقرة فقد سماها خالد بن معدان (ت 103 هـ) وهو من التابعين بـ "فسطاط القرآن" قال ابن عطية: "ويقال لسورة البقرة: «فسطاط القرآن» وذلك لعظمها، وبهاؤها، وما تضمنت من الأحكام والمواعظ"⁽²⁾، وذلك أن الفسطاط اسم المدينة الجامعة والكبيرة.

وأما سورة الأنفال فسماه ابن عباس رضي الله عنهما "سورة بدر" لأن مضمونها الكلام في هذه الغزوة، وبيان أحوالها وأحوال الناس فيها.

وسورة التوبة سماه ابن عباس رضي الله عنهما "سورة الفاضحة" لما فيها من فضح المنافقين، وينسب إليه أيضا أنه سماها "المبعثرة". وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه أنه سماها "البحوث"، وينسب إلى الحسن البصري أنه سماها "الحافرة". وسمها قتادة (ت بعد 110 هـ) "المثيرة". وسمها بعضهم "المقشقة" وكل هذه الأسماء تشير إلى تنبه القوم إلى مقصد السورة ومضمونها وموضوعها، وهو المنافقون وأحوالهم وأحكامهم، فقد جمعت لهم هذه السورة كل تلك الأمور فقد فضحتهم، وبجثت عما في قلوبهم، ونقرت عليه، وحفرت لاستخراجه، ثم أثارته، وبعثته، ونشرته، فمن عرف ذلك واجتنبه برأ وتقشقه من النفاق، وللزحشري كلام جميل في مثل هذا المعنى فليراجع⁽³⁾.

وسمى قتادة وعلي بن زيد (ت 131 هـ) رحهما الله سورة النحل بـ "سورة النعم" لما أكثر فيها من تعداد النعم، وهذا واضح فيه استجلاء مضمون السورة ومقصدتها، وهو تفضل الله سبحانه على عباده بالنعم والخيرات⁽⁴⁾.

(1) انظر: نورة الدوسري، "أسماء سور القرآن وفضائلها"، (137).

(2) ابن عطية، "المحرر الوجيز"، (81/1).

(3) الزحشري، "الكشاف"، (241/2). انظر: نورة الدوسري، "أسماء سور القرآن وفضائلها"، (208) وما بعدها.

(4) انظر: نورة الدوسري، "أسماء سور القرآن وفضائلها"، (242).

وعزا ابن كثير رحمه الله إلى "تفسير الإمام مالك" أن سورة الشعراء تسمى "الجامعة"⁽¹⁾، ووجه ابن عاشور ذلك - اجتهادا من غير قطع - بأنها أول سورة جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعروفين الذين قص الله قصصهم في مواضع شتى⁽²⁾. وسميت سورة محمد عند السلف بـ "سورة القتال" لتضمنها أحكام القتال وأحكام معاملة الكفار من الأسرى، وغيرهم⁽³⁾. وسمى ابن عباس رضي الله عنه سورة الحشر بـ "سورة بني النضير"، بالنظر لمضمونها ومقصدها والغرض منها⁽⁴⁾. وأما سورة الطلاق فكان ابن مسعود رضي الله عنه يسميها "سورة النساء القصوى" لتضمنها أحكام النساء كما هي سورة النساء، إلا أن سورة الطلاق مُيزت عنها بأنها أقل وأقصر من سورة النساء في آياتها، فقليل لها القصوى أو الصغرى⁽⁵⁾. و"سورة البينة" سماها أبي بن كعب رضي الله عنه "سورة أهل الكتاب" لتضمنها الكلام فيهم⁽⁶⁾. وعن زرارة بن أوفى (ت 93 هـ). أنه سمي "سورة الكافرون"، بـ "سورة الملقشة"، وذلك أن من أخذ بما فيها برئ من الكفر والشرك⁽⁷⁾.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سمي "سورة النصر" بـ "سورة التوديع"⁽⁸⁾. لما كان فيها الإيماء إلى أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا المعنى في السورة مروى عن عمر وابن عباس رضي الله عنهما كما هو معروف⁽⁹⁾.

وقد تقدم ذكر أن ذلك الصحابي سمي ووصف سورة الإخلاص بـ "صفة الرحمن".

إن ما في هذه الأسطر من ذكر لأسماء السور بما يتوافق مع مضمونها لمن أكبر الإشارات على دراية القوم بعلم مقاصد السور، الذي هو جزء من أهم أجزاء مقاصد القرآن الكريم، وهو ما يصور لنا شيئا من تاريخ هذا العلم في تلك الحقبة، وشيئا من صورته لدى أولئك القوم رضي الله عنهم أجمعين. بل ويدلنا على درايتهم بمقدمات ذلك من: النظر والتأمل والاستنباط، وطلب الذهن والعقل للمعاني العامة، التي يدل عليها القرآن الكريم، وسعيهم لصياغتها وذكرها والإفادة بها. إضافة إلى أن باب الاجتهاد في أسماء السور واسع، ولأهل العلم من المتقدمين والمتأخرين اجتهادات كثيرة فيه، فبعض السور وردت لها أسماء اجتهادية تدل على رعاية مضمون السورة، وأهم موضوعاتها لكي أعرضت عن ذكرها لأن تلك التسميات:

(1) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، (135/6).

(2) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، (90/19).

(3) انظر: نورة الدوسري، "أسماء سور القرآن وفضائلها"، (386) وما بعدها.

(4) انظر: نورة الدوسري، "أسماء سور القرآن وفضائلها"، (431) وما بعدها.

(5) انظر: نورة الدوسري، "أسماء سور القرآن وفضائلها"، (455) وما بعدها.

(6) انظر: نورة الدوسري، "أسماء سور القرآن وفضائلها"، (578) وما بعدها.

(7) انظر: نورة الدوسري، "أسماء سور القرآن وفضائلها"، (614) وما بعدها.

(8) انظر: نورة الدوسري، "أسماء سور القرآن وفضائلها"، (621) وما بعدها.

(9) وذلك معلوم في قصة إدخال عمر له على أشياخ الصحابة وسؤاله لهم عن معنى السورة، وموافقة عمر لابن عباس رضي الله عنهما في المعنى، وأنه "أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله بقربه إذا رأى هذه الأشياء، فقال عمر ما أعلم منها إلا ما ذكرت، وهذا المنزع الذي ذكره ابن عباس ذكره ابن مسعود وأصحابه ومجاهد وقتادة والضحاك". انظر: ابن عطية، "المحرر الوجيز"، (532/5).

إما أنها نُسبت لمن جاء بعد الصحابة، والتابعين كتسمية سفيان بن عيينة لسورة الفاتحة بـ "الوافية". وتسمية بعض المفسرين سورة الكافرون بـ "سورة الإخلاص وسورة العبادة وسورة المناظرة". وتسمية سورة الإخلاص بـ "سورة الأساس وسورة التوحيد"، وتسمية بعض المتأخرين سورة الحجرات بـ "سورة الأخلاق".

وإما أنها لم تنسب إلى أحد بعينه كـ "سورة القصص" التي سميت بـ "سورة موسى". وكسورة يس التي سميت بـ "قلب القرآن" والحديث ضعيف، ولا يعرف من سماها بذلك. تلك الاجتهادات التي ذكرتها وغيرها مما لم يسعني الجهد في تتبعها، دالة هي الأخرى على دراية القوم بمقاصد السور وموضوعاتها ومضامينها، وهو ما يكشف لنا عن شيء من استمرار هذا العلم، أعني علم مقاصد السور، وكذا علم مقاصد القرآن عموماً وتطوره التاريخي.

ثانياً: مقاصد القرآن الكريم عند الصحابة والتابعين من خلال جوانب أخرى.

1. مقاصد القرآن من خلال تويب القرآن الكريم.

سبق وأن أشرنا في المبحث السابق إلى حديث الأبواب السبعة، وما فيه من دلالة على مقاصد القرآن الكريم، وأرجأنا الكلام عليه تفصيلاً إلى هذا المبحث، ذلك أن تعيين تلك الأبواب السبعة التي تمثل وجهاً من أوجه مقاصد القرآن الكريم ومحاوره، أغلبها من اجتهاد الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم، وسأحاول الاختصار في بحثنا هذا على ما هو مروى عن الصحابة والتابعين في ذلك قد الوسع، ذلك أن تحديد القائل بدقة في بعض الأحيان قد يكون صعباً. وبعد التتبع والجمع وقفت على جملة من الآراء في تعيين تلك الأبواب، أذكرها فيما يلي:

– أول ذلك ما جاء عن علي رضي الله عنه أنه قال: " **أُنزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى عَشْرَةِ أَحْرُفٍ: بِشَيْرٍ وَنَذِيرٍ وَنَاسِخٍ وَمَنْسُوحٍ وَعِظَةٌ وَمَثَلٌ وَمُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ وَحَلَالٌ وَحَرَامٌ**" (1).

– ثم ما جاء في رواية ابن مسعود رضي الله عنه السابق ذكرها، فالأبواب هي: (الزجر، والأمر، والحلال، والحرام، والمحكم، والمتشابه، والأمثال). فتلك الرواية لا تصح مرفوعة، وإنما هي موقوفة على ابن مسعود رضي الله عنه، وهي شبيهة من حيث مضمونها برواية علي رضي الله عنه السابقة إلى حد كبير جداً.

– ومن ذلك أيضاً ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: « ... **فإن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال** » (2).

(1) - عزاه السيوطي في "الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير" (260/1) إلى كتاب "الإبانة" للسجزي رحمه الله.

(2) - أخرجه البيهقي في السنن الصغير (2095). قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، وأبو بكر القاضي، قالوا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن الجهم بن هارون السمرى، حدثنا الهيثم بن خالد، عن عبيد بن عقييل، أخبرني معارك بن عباد، حدثني عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، حدثني أبي، عن أبي هريرة، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مرفوعاً. والصواب عدم صحة مرفوعاً، ففي سنده: عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري وهو متروك واه. ومعارك بن عباد وهو ضعيف واه أيضاً. انظر: المزي، تهذيب الكمال، (31/15-34)، (144/28). والأقرب أنه موقوف على أبي هريرة رضي الله عنه.

-ويروى عن ابن عباس قال: "إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أوغل فيه بعنف غوى، أخبار وأمثال وحرام وحلال وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه، وظاهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل"⁽¹⁾.

- ومن ذلك ما صح عن الربيع بن خثيم (ت 63 هـ) رحمه الله قال: « وجدت هذا القرآن في خمس: حلال، وحرام، وخبر ما قبلكم، وخبر ما هو كائن بعدكم، وضرب الأمثال »⁽²⁾

- وكذا ما نقل عن أبي إدريس الخولاني (ت 80 هـ) أنه قال: " القرآن ست آيات: آية تأمرك ، وآية تنهاك ، وآية تبشرك، وآية تنذرك، وآية فريضة وآية قصص وأخبار أو قال: أمثال "⁽³⁾. وفي لفظ آخر: " وآية قصص وآية أخبار وآية أمثال".

- ومن ذلك ما جاء عن سلمة بن أبي سلمة، عن أبيه أبي سلمة عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف (ت 104 هـ) قال: «نزل القرآن على سبع: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وضرب الأمثال، وخبر ما كان قبلكم، وخبر ما هو كائن بعدكم»⁽⁴⁾.

- وروي عن أبي قلابة (ت 104 هـ) رحمه الله، أنه قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، أمر وزجر وترغيب وترهيب وجدل وقصص ومثل»⁽⁵⁾.

(1) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (150/2)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم في "تفسيره" ولم أعثر عليه في المطبوع منه. وقريب من معنى هذه الرواية ما أخرجه الطبري في تفسيره "جامع البيان" (576/5، 6177)، وابن أبي حاتم في تفسيره (531/2، 2822). عنه أنه قال في قوله تعالى: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) [البقرة:]، "يعني: المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله". وإن كانت هذه الرواية قد تحمل على علوم التفسير، وما يعين على فهم القرآن.

(2)-أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص99-100) حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن أبيه، عن بكر بن معز، عن الربيع بن خثيم، به، وسنده صحيح. وعبد الرحمن هو ابن مهدي، وسفيان هو الثوري، وفيه بكر بن معز بن مالك الكوفي أبو حمزة وهو ثقة حجة، انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (486/1-487).

(3) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (5)، نا معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي إدريس الخولاني به. وهو أثر صحيح الإسناد معمر هو ابن راشد، وأيوب هو السخيتاني، وأبو قلابة هو عبد الله بن زيد الجرمي وجميعهم أئمة. إلا ما قيل في أبي قلابة من الإرسال، وهذه رواية منه عن شيخه. وقد استدلل أهل العلم بهذا الأثر وذكروه انظر: العز بن عبد السلام، نبذ من مقاصد القرآن، (101).

(4)-أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص100) حدثنا أبو عبيد حدثنا حجاج، عن الليث بن سعد، عن عقيل، عن ابن شهاب، سلمة بن أبي سلمة عن أبيه عن النبي ﷺ مرفوعا، والصواب وقفه على أبيه، فسلمة مع ثقته كان كثير الإرسال، وخاصة بهذا الإسناد، قال البخاري: " وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: عَنِ اللَّيْثِ، عَنِ عَقِيلِ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنِ سَلْمَةَ. عِنْدَهُ مَرَاثِيلُ "التاريخ الكبير" (80/4).

(5)-أخرجه الطبري في تفسيره (68/69/1) حدثنا محمد بن بشار، قال حدثنا عباد بن زكريا، عن عوف، عن أبي قلابة، مرفوعا قال قال رسول الله ﷺ. وهو مرسل صحيح الإسناد، لا تقوم الحجة به مرفوعا، وإنما يؤخذ منه العلم منسوباً إلى من صح السند به إليه، وهو أبو قلابة رحمه الله. ويدل لذلك أنه من معهود علم القوم فأبو قلابة هو الراوي عن أبي إدريس في الأثر السابق ذكره. فظاهر أنه هو صاحب هذا الاجتهاد والتقسيم والتبويب.

- ومن الأقوال في ذلك ما جاء عن راشد بن سعد (ت 113 هـ)، قال: « نزل القرآن على خمسة أحرف: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وضرب الأمثال، فأحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، واعتبروا بأمثاله»⁽¹⁾. وهي مثل رواية أبي هريرة رضي الله عنه السابقة.

وخلاصة تلك الروايات والأقوال أن:

منها ما جعل القرآن عشرة أحرف وهي (بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَنَاسِخٌ وَمُنْسُوخٌ وَعِظَةٌ وَمَثَلٌ وَمُحَكَّمٌ وَمُتَشَابِهٌ وَحَلَالٌ وَحَرَامٌ).
ومنها ما جعله ثمانية وهي: (أَخْبَارٌ وَأَمْثَالٌ وَحَرَامٌ وَحَلَالٌ وَنَاسِخٌ وَمُنْسُوخٌ وَمُحَكَّمٌ وَمُتَشَابِهٌ).

ومنها ما جعله سبعة وهي (الزجر، والأمر، والحلال، والحرام، والمحكم، والمتشابه، والأمثال)، (حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وضرب الأمثال، وخبر ما كان قبلكم، وخبر ما هو كائن بعدكم)، (أمر وزجر وترغيب وترهيب وجدل وقصص ومثل).

ومنها ما جعله ستة وهي ((آية تأمرك ، وآية تنهاك) ، (آية تبشرك، وآية تنذرك)، وآية فريضة، وآية قصص، وآية أخبار، وآية أمثال).

ومنها ما جعله خمسة وهي (حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال). (حلال، وحرام، وخبر ما قبلكم، وخبر ما هو كائن بعدكم، وضرب الأمثال).

تلك هي جملة الأقوال التي وقفت عليها في كتب الروايات والآثار، وقد ذكر جملة منها بعض أهل العلم من المتقدمين، كأبي عبيد القاسم بن سلام في "فضائل القرآن"، وابن قتيبة رحمه الله في "تأويل مشكل القرآن"⁽²⁾، والطبري رحمه الله في مقدمة تفسيره "جامع البيان"⁽³⁾. وأحسب أني جمعت من الأقوال أكثر مما نقله هؤلاء الأئمة إلا قولاً ذكره ابن قتيبة لم أجد من قاله في ما وقفت عليه من مرويات، وهو قول من جعل الأحرف سبعة وعددها (وعد، ووعيد، وحلال، وحرام، ومواعظ، وأمثال، واحتجاج).

وبعد هذا الجمع، وذلك العرض أقف مع تلك الروايات بعض الوقفات ربطاً لها مع عنوان مبحثها، وموضوع بحثها، فأقول:

✽- اختلفت الروايات في التعبير عن تلك التقسيمات فقليل أبواب وقيل أحرف وقيل أوجه، وهي متقاربة جميعها من حيث المعنى، وقد أشار الطبري رحمه الله تعالى إلى هذا المعنى فقال: « وكل هذه الأخبار التي ذكرناها متقاربة المعاني، لأن قول القائل: فلان مقيم على باب من أبواب هذا الأمر، وفلان مقيم على وجه من وجوه هذا الأمر، وفلان مقيم على حرف من هذا الأمر سواء. ألا ترى أن الله جلّ ثناؤه وصف قوماً عبده على وجه من وجوه العبادات، فأخبر عنهم أنهم عبده على

(1)- أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص 99) حدثنا أبو اليمان، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مریم، عن راشد بن سعد قال قال رسول الله ﷺ مرفوعاً.

وسنده ضعيف، فيه: أبو بكر بن عبد الله بن أبي مریم وهو ضعيف مع تمته بالاختلاط، وفيه راشد بن سعد من التابعين ثقة كثير الإرسال، انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (28/12-29) (225/3-226). والصواب في الحديث وقفه على راشد بن سعد.

(2) ابن قتيبة، "تأويل مشكل القرآن"، (29) وما بعدها.

(3) الطبري، "جامع البيان"، (68/1-72).

حرف فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: 11] ، يعني أنهم عبدوه على وجه الشك، لا على اليقين والتسليم لأمره...»⁽¹⁾.

*- تلك الروايات على ما فيها من تغاير عبارة، وتنوع رأي، هي اجتهاد من السلف رحمهم الله تعالى في تبويب القرآن الكريم، وحصص مضامينه، فكل واحد منهم نظر إلى القرآن الكريم فرأى أن كل ما فيه من الآيات يندرج تحت قسم من الأقسام، وعدة تلك الأقسام إما عشرة أو ثمانية، أو سبعة، أو ستة، أو خمسة.

*- ذكر تلك الأبواب أو الأوجه أو الأحرف وحصصها، إنما أراد به من ذكره من السلف بيان أن القرآن الكريم إنما أنزل ليرشد الناس إلى هذه المعاني الكبرى، والمحاور الرئيسة ليعلموها، ويدركوها، ويلحظوها حال تعاملهم مع القرآن الكريم، وهي ما نسميه نحن اليوم مقاصد القرآن وغاياته.

*- أن هذا الذي ذكرناه هنا يعطينا صورة لما كانت عليه مقاصد القرآن الكريم عند السلف الأولين، فضلا عن دلالة على دراية القوم به، وسعيهم إلى تحصيله، وسبقهم في إدراكه، وتفاوتهم في الاجتهاد فيه.

*- قد اتضح من خلال عرض هذه الأقوال أن السلف رضوان الله عليهم لما اجتهدوا تلك الاجتهادات قد كان مسلكهم فيها الاستقراء لآيات القرآن الكريم، والنظر والتأمل في مضامينها، فهي المنطلق في صناعة المقاصد، وهو ما يرسم لمن جاء بعدهم الطريق الأمثل لصناعة المقاصد القرآنية والشرعية، فبعد الدراية بما هو نص صريح، يأتي تدبر ما يحتاج إلى نظر وتأمل، وأول سبيل ذلك هو الاستقراء والتتبع، ثم التجميع والتصنيف، ثم الصياغة والتفصيل.

*- لما كان مبنى ما تقدم على الاجتهاد وليس في الباب ما هو توقيف ملزم، تواصلت اجتهادات أهل العلم رحمهم الله في ذلك فنتج منها جملة كبيرة من الأقوال، قد لا يهتدي إليها الباحث لأنه لن يجدها في موضعها الذي ينبغي أن تكون فيه، وإنما سيجدها في مكان آخر، وسيجدها مفصلة في مسألة أخرى من مسائل علوم القرآن الكريم، ألا وهي مسألة الأحرف السبعة، فقد ذكرت فيها أقوال كثيرة، تزيد على الستة والعشرين قولاً⁽²⁾ كلها إنما هو اجتهاد في تقسيم القرآن الكريم، وتبويبه وتحديد أوجهه، وحروفه.

2. مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة عند الصحابة والتابعين.

سبق وأشرنا في المبحث السابق إلى علاقة مقاصد القرآن الكريم بمقاصد الشريعة والأحكام، وأن مقاصد الشريعة والأحكام جزء من مقاصد القرآن الكريم، ودليل عليها، وشعبة من شعبها، "وبتتبع اجتهادات الصحابة رضي الله عنهم القولية والعملية نجد مراعاتهم لمقاصد الشريعة التي استقوها من شهودهم التنزيل، وصحبتهم لرسول رب العالمين... وفهمهم لحقائق هذا الدين فهما صحيحا راسخا"⁽³⁾، وكذلك الشأن في تلاميذهم من التابعين، فقل فيهم قريبا من ذلك، ولو ذهبنا نتبع أفرادا من تلك الاجتهادات التي رآها الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان، وفق نظرهم المقاصدية لرأيت عجا في حذقهم وفهمهم، وعمق علمهم، وتام درايتهم بمقاصد الشريعة وروحها، فمن ذلك:

(1) - ابن جرير الطبري، "جامع البيان"، (70/1).

(2) انظر تفاصيل تلك الأقوال عند: المقرئ، "إمتاع الأسماع"، (257/4) وما بعدها. والسيوطي، "الإتقان"، (164/1) (173/1) وما بعدها.

(3) عبد العزيز العويد، "أصول الفقه عند الصحابة"، (116).

أن أبا بكر رضي الله عنه ما عزم على قتال المرتدين رغم خلاف القوم له أول الأمر إلا رعاية لمقصد الدين وحفظه، وقل مثل ذلك فيه وفي عمر رضي الله عنه الذي أشار عليه بجمع الصحف، وكذا قل في عثمان ومن معه رضوان الله عليهم لما تولوا جمع المصاحف. وما أخذ عمر رضي الله عنه بقتل الجماعة بالواحد إذا تمالؤوا عليه إلا لحفظ الأنفس، وما أمر تأخيره حد السرقة عام الرمادة إلا رؤيته في حفظ أنفس القوم، وأجزائها عام شدتهم، وعسر الحال التي زادت الضرورة ضرورة، والحاجة حاجة. كما كان تضمين الصناعات، في عهد عمر رضي الله عنه، والتعريف بالإبل الضالة زمن عثمان إلا سعيًا للحفاظ على أموال الناس من الضياع والتهتك بغير وجه.

ومن حفظ عمر رضي الله عنه للأنساب أنه أفتى في المطلقة التي كانت ذات أقران، ثم ذهب عنها الحيض بغير سبب من حمل أو رضاع أو مرض أن تنتظر تسعة أشهر عدة حملها، ثم ثلاثة أشهر عدة طلاقها، ثم لها أن تتزوج، وما هذا إلا مزيدًا في رعاية حرمة اختلاط الأنساب، واعتبارًا لمقصد حفظ النسل. كل هذا وغيره شاهد صدق، ودليل حق على علو كعب القوم في علوم الشريعة ومقاصدها، التي انبثقت من ينابيع المقاصد القرآنية، والغايات الربانية.

ويضاف على ما سبق علم الصحابة ومن جاء بعدهم بعلل الأحكام، ومناطات التشريع، التي نظر الشارع إلى اعتبارها في أحكامه، وجعل تحصيلها وجودًا وعدمًا غاية له من تشريعها، فكانت بذلك فتاويهم وأقيستهم غاية في الصحة والصدق وموافقة الشريعة، ومناذج ذلك كثيرة ك:

تعليلهم أحقية أبي بكر في الخلافة بأن النبي صلى الله عليه وسلم قدمه للصلاة فرضيه في دينهم.

وتعليلهم جلد الشارب للخمير ثمانين، بأن الأربعين التي كانت زمن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت ردعًا وزجرًا ولم تكن حدًا محددًا، وأن الناس لما قل دينهم تمادوا فيها، فلما كان الشارب ذاهب العقل يكذب ويفتري، ناسب أن يعاقب عقوبة المفتري الأفك ثمانين جلدة. في ذلك من العلم والدراية بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم وتدبير الناس في زمنه، وزمن من بعده، والعلم برعاية المصالح الشيء الكبير الذي لن يجتمع لمن جاء بعدهم.

ولو ذهبنا نتبع أمورًا أخرى مما يدل على درايتهم بمقاصد الشريعة، ومقاصد القرآن الكريم، لطال بنا الكلام والمقام، وأحيل القارئ كتاب "أصول الفقه عند الصحابة" لعبد العزيز العويد، فقد تتبع في الفصل الثاني من كتاب كل صور اعتناء وتجلي مقاصد الشريعة في أقوال الصحابة وفتاويهم وأفعالهم، فليراجع لمزيد الاستفادة. زيادة على ما اختصرته واقتبسته فيما تقدم من كلامهم، ومجته.

ولما كان هذا الفرع من هذا المبحث معلومًا ومدروسًا في علم مقاصد الشريعة، وقد كتب فيها الكثير قديمًا وحديثًا، كان مبتغى ما سطرته هنا تلكم الإشارة إلى ذلكم الربط بين مقاصد القرآن الكريم، ومقاصد الشريعة، وتلك العلاقات التي بينهما، ليندرج هذا الكلام مع مضمون البحث اندراجًا لا نشاز فيه، وحسي أن أكون قد قربت للقارئ مقصود الفكرة، وموضع النظر، فمقاصد الشريعة والأحكام إنما هي رافد من روافد المقاصد القرآنية العظيمة الغزيرة، فما أخذ حفظ الكليات الخمس إلا من معين القرآن الكريم، وما أخذ التعليل والقياس إلا من دلالات آيات القرآن تأصيلًا له، ومن دلالة ألفاظ القرآن استنباطًا منها، وكذا رعاية المصالح بتحصيلها وتكثيرها، ودرء المفاسد باجتناؤها وتقليلها، فليست إلا استنباطًا من القرآن الأمر بالخير مسارعة فيه، وبالحرمان تجنبًا ونهيًا عن الوقوع فيه، بالنهي عن مقارنته، والأمر بالوقوف عند حدوده.

3. مقاصد القرآن الكريم من خلال فضائل السور والآيات.

والقصد من هذا الفرع أمران اثنان نذكرهما إشارة واختصاراً:

أولها: ما سبقت الإشارة إليه في قوله ﷺ في سورة الإخلاص وفضلها، وأنها تعدل ثلث القرآن، وكذا آية الكرسي، وسورة الفاتحة التي عدلت القرآن كلمه لما سماها ﷺ أم القرآن والقرآن العظيم. فقد عرضنا هناك صورة دلالة تلك الأحاديث على مقاصد القرآن الكريم.

وثانيهما: وهو المقصود هنا أنه قد وردت عن بعض السلف من الصحابة والتابعين بعض الأقوال الدالة على المفاضلة بين بعض الآيات والسور نظير ما ورد في تلك الأحاديث، ومن ذلك ما نقل عن الحسن البصري أنه قال: "بلغني أن يس تعدل القرآن كله"⁽¹⁾. فهذا وأمثاله من روايات تحتاج إلى معرفة مرتبتها من حيث القبول والرد سنداً، ثم النظر في مضامينها وما دلت عليه، واستجلاء ذلك، وعلاقته بمقاصد القرآن الكريم.

الخاتمة:

وفي خاتمة هذه البحث أسجل جملة من النقاط التي خلص إليها، والنتائج التي وصل إليها، فأقول:

* عرف البحث بمقاصد القرآن الكريم لغة، وأشار إلى أن استعمال العلماء رحمهم الله لمقاصد القرآن الكريم إنما أرادوا بها مدولها اللغوي، وأما المعاصرون فسعوا إلى وضع تعريفات اصطلاحية، جمع البحث بعضها وأبدى جملة من الملاحظات عليها، من أهمها تأثيرها الواضح بتعريف مقاصد الشريعة.

* قرر البحث أن للقرآن الكريم مقاصد وحكم وغايات، دلت عليها جملة من الأدلة منها أسماء الله الحسنى وصفاته، وأسماء القرآن الكريم وصفاته، وأساليب اللغة العربية الصريحة.

* وتبعاً لما سبق من ذكر الأساليب العربية الصريحة في دلالتها على مقاصد القرآن، يمكننا القول إن مثل تلك المقاصد في غاية من الوضوح بحيث لا تخفى على أي قارئ، فهي تمثل نوعاً من المقاصد وهو المقاصد الصريحة، وفي المقابل ثمة جملة من المقاصد المستنبطة التي تبلغها العقول بالتفكير والتدبر، والناس في إدراكها مراتب بحسب مراتبهم في العلم.

* من أهم مظاهر تجلي مقاصد القرآن الكريم زمن الصحابة أسماء السور القرآنية التوقيفية والاجتهادية التي تدل على مضمون السورة ومقصدتها، وقد عرض البحث كثير من النماذج في ذلك.

* من أهم مظاهر تجلي مقاصد القرآن الكريم زمن الصحابة ما دلت عليه جملة من أحاديث النبي ﷺ الدالة على فضل بعض السور والآيات، كآية الكرسي وسورة الإخلاص.

* من أهم مظاهر تجلي مقاصد القرآن الكريم زمن الصحابة درايتهم بمقاصد الشريعة التي هي جزء منها، ونتاج عنها.

* من أهم مظاهر تجلي مقاصد القرآن الكريم زمن الصحابة ما دلت عليه بعض الأحاديث النبوية من أن القرآن الكريم أبواب سبعة.

* وتبعاً لذلك فإن من أهم مظاهر تجلي مقاصد القرآن الكريم زمن الصحابة ما ورد عنهم من اجتهاد في تعيين تلك الأبواب السبعة، وقد جمع البحث نصيباً وافراً منها.

(1) أخرجه الدارمي في "السنن" (3458).

✽ وقل في زمن التابعين ما قلت في زمن الصحابة فإن من أهم مظاهر تجلي مقاصد القرآن الكريم عندهم ما أثر عنهم من أسماء اجتهادية لبعض السور، دلت على مقاصدها، وكذا درايتهم بمقاصد الشريعة التي هي جزء المقاصد القرآنية، وكذا ما أثر عنهم من اجتهادات في تحديد الأبواب السبعة وتعيينها، وما نقل عن بعضهم من كون بعض سور القرآن تعدل كذا وكذا، وهذا يحتاج إلى مزيد جمع وتحرير.

✽ خلص البحث إلى أن الأبواب السبعة الواردة في بعض الأحاديث هي تعيين لمحاور القرآن الكريم ومقاصده، وتبعاً لذلك فليس لها علاقة بمسألة معنى الأحرف السبعة المعروفة.

✽ وتبعاً لهاتين النقطتين الأخيرتين أوصي:

- نفسي والباحثين حال الكلام في العلوم الشرعية عند السلف رضوان الله عليه بالترتيب في إصدار الأحكام عليهم بالنفي فمن العلوم ما تحققوا بها ولم يحتاجوا إلى ذكرها، وإنما ظهرت في تعاملاتهم، أو كانت واضحة لم يحتاجوا إلى ذكرها.

- كما أوصي ببحث جملة من المسائل التي لها علاقة بموضوعنا هذا (مقاصد القرآن) لبيانها ومعرفة حال السلف معها تفادياً للزيغ والشطط إما بتهمة الأولين بالجهل بها، أو بانزلاق المتأخرين في استسهال تأصيلها ووضعها والتحاكم إليها.

- كما أوصي بوضع بحث يستجمع الآثار التي ورد فيها أن سورة من القرآن الكريم تعدل كذا وكذا من القرآن الكريم، لتتبعها ومعرفة درجتها صحة وضعها، كذا ما تضمنته من علوم ومعارف وعلاقتها بمقاصد القرآن الكريم.

وهذا آخر ما بلغه اجتهادي في جمع مادة هذا البحث وتسطيرها وعرضها، وتقسيمها وتبويبها، وأسأل الله تعالى أن يسبغ علي توفيقه، ويغشاني برحمته، ويتابع علي عونه، وأن لا يكلني إلى نفسي طرفة عين، والحمد لله رب العالمين.

قائمة أهم المصادر والمراجع.

آدم بومبا، "أسماء القرآن الكريم"، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط1، 1430هـ - 2009م.
أحمد بن حنبل، "المسند"، ت شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ - 2001م.
البخاري، "الجامع الصحيح"، ت مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ط3، 1407هـ - 1987م.
البخاري: "التاريخ الكبير"، الطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان.
البيهقي الأسماء والصفات، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادى، جدة - المملكة العربية السعودية، ط1، 1413 هـ - 1993 م

البيهقي السنن الصغير، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي . باكستان، ط1، 1410 هـ - 1989م

ابن حبان صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، حققه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2، 1414 - 1993
ابن حجر تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط1، 1326هـ

ابن حجر، نخبه الفكر مع شرحها نزهة النظر، المحقق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مطبعة سفير بالرياض، ط1، 1422هـ.
الحملوي، شذا العرف في فن الصرف، المحقق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله، مكتبة الرشد الرياض.

الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: مصطفی عبد القادر عطا، دار الکتب العلمیة - بیروت، ط1، 1411 - 1990.
ابن أبي حاتم، "التفسير"، ت أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط3، 1419هـ.

- ابن رجب " جامع العلوم والحكم"، المحقق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط7، 1422هـ - 2001م.
- ابن رسلان، "محاسن الاصطلاح"، عمر بن رسلان، المحقق: د عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، الناشر: دار المعارف. الزبيدي، تاج العروس، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية. الزمخشري، "الكشاف"، دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ.
- السخاوي، "فتح المغيث"، المحقق: علي حسين علي، مكتبة السنة - مصر، ط1، 1424هـ / 2003م. السعدي، "تيسير الكريم الرحمن"، ت اللويح، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م. السيوطي، "الإتقان"، ت مُجد أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ - 1974م. السيوطي، "الدر المنثور في التفسير بالمأثور"، دار الفكر.
- السيوطي "الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير"، المحقق: يوسف النبهاني، دار الفكر، ط1، 1423هـ - 2003م. الطبري، "جامع البيان"، ت أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م. عبد الرزاق بن همام، التفسير، دراسة وتحقيق: د. محمود مُجد عبده، دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ.
- عبد العزيز العويد، "أصول الفقه عند الصحابة"، وزارة الشؤون الإسلامية لدولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، ط1، 1432هـ - 2011م.
- عبد الكريم حامدي، المدخل إلى مقاصد القرآن، مكتبة الرشد-ناشرون، المملكة العربية السعودية، ط1 / 1428هـ - 2007م. عبد الله الخطيب، مقاصد القرآن وأهميتها في تحديد الموضوع القرآني - دراسة نصية في بعض كتب التفسير وعلوم القرآن، موقع رياض العلم، <https://riyadhalelm.com/play-6519.html>
- أبو عبيد القاسم بن سلام، "فضائل القرآن"، ت مروان عطية وآخرون، دار ابن كثير، ط2، 1420هـ - 1999م. عز الدين كشنيط الجزائري، أمهات مقاصد القرآن وطرق معرفتها ومراتبها، أطروحة دكتوراه غير مطبوعة في أصول الدين، تخصص: دراسات قرآنية، جامعة بغداد، 1424هـ / 2004م.
- العز بن عبد السلام، نبذ من مقاصد القرآن، تحقيق أيمن عبد الرزاق الشوا، طبع في مطبعة الشام، توزيع مكتبة الغزالي دمشق، ط1، 1416هـ - 1995م.
- ابن عطية، "المحرر الوجيز"، ت عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ - 1993م. علاء الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، دار الغرب الإسلامي، ط5 / 1993م.
- الغزالي، جواهر القرآن، المحقق: مُجد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط2، 1406هـ - 1986م. الفيروز آبادي، "القاموس المحيط"، ت مركز الرسالة...، مؤسسة الرسالة، ط3، 1433هـ - 2012م.
- ابن فارس، "معجم مقاييس اللغة"، ت عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م. ابن قتيبة، "تأويل مشكل القرآن"، ت إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية.
- القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ت البر دوني وأطفيش، دار الكتب المصرية، ط2، 1384هـ - 1964م. ابن كثير، "تفسير القرآن"، ت سامي سلامة، دار طيبة، ط2، 1420هـ - 1999م.
- مُجد بن أبي بكر ابن القيم، "إعلام الموقعين عن رب العالمين"، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، (ط1)، المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، 1423هـ).

- مُحَمَّد بن أبي بكر ابن القيم، "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر"، تحقيق مُحَمَّد أبو فراس، (بيروت: دار الفكر، 1398 - 1978).
- مُحَمَّد بن عمر بازمول، القراءات القرآنية وأثرها في التفسير والأحكام، دار الفرقان مصر، ط1، 1431هـ - 2009م.
- مُحَمَّد سعيد اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار الهجرة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ - 1998م.
- مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، الدار التونسية للنشر تونس، 1984 هـ.
- المزي، تهذيب الكمال، المحقق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1، 1400 - 1980 مسلم، "الجامع الصحيح"، إِمُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
- المقرئزي، "إمتاع الأسماع"، ت مُحَمَّد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، 1420هـ - 1999م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط3، 1414 هـ.
- منيرة الدوسري، "أسماء سور القرآن الكريم وفضائلها"، دار ابن الجوزي، ط1، 1426هـ.
- المنائوي "الإتحافات السننية بالأحاديث القدسية"، تحقيق: مُحَمَّد عفيف الزعبي، مؤسسة الرسالة - لبنان.
- ابن ماجه "السنن" تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.
- نشوان عبده، دور الاستقراء في إثبات مقاصد القرآن الكريم عند ابن عاشور، مقال، مجلة جامعة المدينة العالمية المحكّمة (مجمع)، العدد الرابع، سبتمبر 2013م، ص14.
- النووي، "الأربعين"، عُنِي بِهِ: قصي مُحَمَّد نورس الحلاق، أنور بن أبي بكر الشياخي، دار المنهاج للنشر والتوزيع، لبنان، ط1، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م